الطريق الطويل الى "بليير هاوس"

دخلت اسرائيل بلير هاوس متماسكة ودخلها السادات مجردا من اسلحته

الجماهير ... الرقم الاهم غير "المحسوب" في "بليير هاوس" !

الانتفاضة الجماهيرية في الضفة : الرد الحقيقي

فيما تواصل لجان « بلير هاوس » اعمالها من اجل الوصول الى صيغة نهائية عملية تنقل اتفاقات « كامب ديفيد » الى حيز التنفيذ ، تحاول بعض الدوائر الغربية الترويج الى ان الوفد « الاسرائيلي » قد تجاوز « التوجيهات التي زودته بها الحكومة « الاسرائيلية » ، فيما يتعلق بالتنازلات المسموح له بتقديمها » .

الا ان تصريحات مردخاي تسيبوري اكدت « ان كل متطلبات الامن « الاسرائيلية » اخذت في الاعتبار (...) ان « اسرائيل » ستكون قادرة على المواجهة في حال اشتعال الجبهتين الشمالية والشرقية بعد توقيع « اتفاقية السلام » مع مصر . ويكشف التصريح حقيقة التنازلات التي قدمتها « اسرائيل » ، ويوضح الى اي مدى يراهن العدو الصهيوني على اهمية وتأثير اخراج مصر من المواجهة العسكرية .

ظاهرتان بعد حرب اكتوبر

وفي اطار الحديث عن تحديد المسؤولية ، والمسؤولين عن التدهور في الموقف المصري ، والمستوى الذي وصل اليه نظام السادات ، تحصر العديد من القوى ذلك في نظام السادات ، او بشكل اكثر حصرية في الشريحة الطبقية الحاكمة في مصر . اما الواقع ، فانها حصيلة مسار تاريخي تعود جذوره الحديثة الى الفترة التي اعقبت وقف اطلاق النار في حرب اكتوبر ، حيث برزت ظاهرتان اثرتا بشكل عميق على تطور اشكال ومظاهر الصراع العربي ـ « الاسرائيلي » في الاطار القومي العام ، وانعكست باشكال اخرى على الصعيد القطري الخاص .

بيغن ودايان وويزمان : ثلاثي التسوية

الظاهرة الاولى : ادعاء البرجوازية المصرية الحاكمة ، وشرائحها الاكثر نفوذا بالعباء الاقتصادي الضخم الذي يصعب تحمله بسبب استمرار حالة الحرب مع العدو الصهيوني ، وما تلا ذلك من خطوات على طريق الرضوخ للشروط الصهيونية ، كانت بداياتها الاولى وقف اطلاق النار ، ثم محادثات الكيلو ١٠١ ، لتصل في نهاية الامر الى الزيارة ، فقمة كمب ديفيد .

الظاهرة الثانية كانت ارتفاع اسعار النفط ، وتدفق مليارات الدولارات على الانظمة الرجعية النفطية ، وخاصة السعودية ، التي تضخم حجمها السياسي بما لا يقاس مع وزنها الحالي ، وثقلها البشري ، بل زهتى اهمية موقعها الاستراتيجي . انعكس ذلك على الدور الذي اخذته لنفسها على الصعيد العربي ، وتترجم في المشروعات التي اسهمت في صياغة روحها الاساسية متكئة على الاندفاع المصري نحو الرضوخ لشروط العدو الصهيوني .

تزاوجت هاتان الظاهرتان مع التحول الذي طرأ على الستراتيجية الامريكية ، وخاصة بعد وصول الثلاثي كارتر ـ بريزنيسكي ـ فانس الى سدة ادارة البيت الابيض ، وضغوط الازمة الاقتصادية عليها ، مما دفع الامبريالية الامريكية ، بحثا عن ضمانات حقيقية لتوفير احتياجاتها من مصادر الطاقة وباسعار رخيصة ، وحرصا على الابقاء على مواقع نفوذها السياسي والاقتصادي في الشرق الاوسط الى ان تعطي اهتماما خاصا لهذه الساحة ، التي حظت بحصة الاسد من الستراتيجية الدولية للامبريالية الامريكية المندفعة نحو « سلام دائم » يحفظ لها ذلك النفوذ ، وتلك المصالح ، ويحقق متطلبات الدفاع عن حلفائها في هذه المنطقة .

سارع ذلك من نزوع البرجوازية المصرية الحاكمة نحو « السلام » الذي تحول هدفا قائما بذاته ، ادعت آن الوصول اليه لا بد وان يحل المعضلات الاقتصادية المتراكمة والمتفاقمة ، والنابعة اصلا من سياسة « الانفتاح » الاقتصادي العرجاء التي اعادت مصر الى حالة « المزرعة » للاستثمارات الاجنبية وسوقا رائجة لبضائعها ، وهو الشيء الذي قلصت منه كثيرا ثورة يوليو وخاصة بعد اجراءات ١٩٦١ . ادى ذلك الى زيارة السادات للقدس ، ومن ثم مباحثات كامب ديفيد ، فمحادثات « بلير هاوس » .

لذا فان ما يقوم به السادات لا تقع مسؤوليته عليه وحده فقط ، بقدر ما هو محصلة طبيعية لتراكمات أوهام التسوية في المنطقة العربية ، ادت في نهاية المطاف الى ان تأخذ زمام المبادرة فيها البرجوازية المصرية لكونها ـ تاريخيا وموضوعيا ـ الاكثر قدرة على آخذ هذا القرار الخياني ، الذي قاد الى محادثات بلير هاوس .

« بلير هاوس » الى اين ؟

على هذه الارضية ، وتحت حكم هذه العوامل ، جرت محادثات « بلير هاوس » ، التي حققت اخراج مصر من صفوف المواجهة ، وضمنت للعدو الصهيوني تجميد اخطر جبهات المواجهة له . مما اخل اخلالا كبيرا بموازين قوى الصراع العربي ـ الاسرائيلي لصالح هذا الاخير ، وعلى كافة الاصعدة وخاصة العسكرية .

بالقدر ذاته ، كان التفوق الصهيوني داخل اروقة « بلير هاوس » حيث دخلتها مصر من مواقع الضعف ، لعل اهمها العزلة التي اختارها السادات لمصر ، هذه العزلة التي يدركها السادات ، ولا تستطيع آن تقلص من تأثيراتها السلبية هستيريا وخطاباته وتحديه الدول العربية بأن تقدم على عزل مصر ، ولا حتى استمرار استخدامه « لانتصارات حرب اكتوبر » التي لوى هو رقبتها ، ومن ثم ادعائه آنه « اعاد بحرب اكتوبر الكرامة (للعرب) حين لم تكن لهم كرامة » !

ذلك كان على الصعيد السياسي ، حيث فقدت مصر الثقل السياسي الذي تعطيه لها ٢١ دولة ، وما يزيد على ١٠٠ مليون مواطن عربي ، لا يقل عن اهمية ما فقدته على الصعيد الاقتصادي . فقد قدرت صحف القاهرة الصادرة اثناء مؤتمر بغداد ان مجموع المساعدات التي وفرتها الدول النفطية الخليجية لمصر خلال عامي ٧٦ ـ ٧٧ بحوالي ٤ مليار دولار و ٦٢٥ مليون دولار . وهذا يساوي ١١ بالمئة من المجهود الحربي المصري . فوق ذلك ، وبسبب تفريط السادات في حقوق العرب بما فيها حقوق مصر ، وحقوق شعب فلسطين ، تعرضت مؤسسته الحاكمة الى ما يشبه التصدع الداخلي ، فقد تتالت الاستقالات من قبل وزراء الخارجية المصرية تعبيرا عن فداحة التنازلات الخيانية التي قدمها السادات دون ان يكون لها ما يساويها من التنازلات الصهيونية . لم يكن خلاف المستقيلين نابعا من رفض للتسوية ، بل كان رفضا لشكلها وصيغتها التي وافق عليها السادات .

من الحق اذا القول ، ان السادات دخل مسرح الصراع السياسي للتسوية وهو فاقد لمجموعة من الاسلحة الاساسية التي كان من خلالها يتوهم امكانية تحسين شروط التسوية : الوحدة الداخلية المتماسكة ، الدعم العربي ، التضامن الدولي . لذا كانت موازين القوى داخل حلبة الصراع مختلة لصالح المنافس الصهيوني .

على العكس من ذلك كان وضع المحاور الصهيوني . جاء اتفاق « كامب ديفيد » ليعيد للارهابي بيغن نسبة عالية من الثقة « الشعبية » والسياسية ، تجلت عبر ردود الفعل المباشرة للشارع الصهيوني داخل الارض المحتلة ، ومواقف الاحزاب والقوى السياسية الممثلة في الكنيست وكذلك مجلس الوزراء عند اخذ الاصوات من نتائج « كامب ديفيد » .

التماسك الصهيوني الداخلي عززه تضامن الحليف الامبريالي معه ، حيث استمرت الامبريالية الامريكية عراب التسوية في « كامب ديفيد » في موقفها المنحاز الى الطرف الصهيوني . حتى « الامتعاض » من توسيع المستوطنات لم يتجسد عمليا في موقف ملموس ، بل انحصر في اطار الاستغراب اللفظي الذي لا يغير شيئا من موازين القوى ، ولا يمس جوهر العلاقات الاسرائيلية الامريكية .

حتى الشائعات التي ترددت حول رفض « اسرائيل » الجلاء عن مطاراتها في سيناء طالما ان المطارين البديلين اللذين تتولى الولايات المتحدة انشاءهما في صحراء النقب لم يتما بعد ، الاجتماع المطول بين دايان وفانس ، حيث كانا يناقشان بعض المسائل التفصيلية في هذا الشأن ،

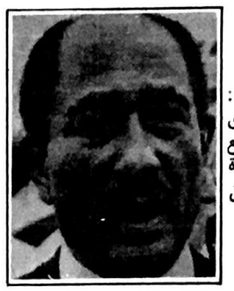

السادات : الى اي مدى يستطيع مواصلة الطريق

ويحاولان تحديد الموازنة المطلوبة لذلك ، حيث اعلن دايان « ان اسرائيل لن توقع معاهدة الصلح الا اذا وعدت الولايات المتحدة الامريكية بتقديم المعونة التي تقدر بحوالي ٣،٤ مليار والتي طلبها مناحيم بيغن » . هذا يعني ان العدو الصهيوني يحاول آن يجمع المزيد من المكاسب المالية ، مقابل « التراجعات » التي يدعي آنه قدمها ، ولعل ابرزها الانسحاب من سيناء .

الانسحاب من سيناء الذي يبدو لن يتجاوز الخطوط الجغرافية ، لان العدو الصهيوني سوف يعوض عسكريا بالمطارات التي ستقدمها له الامبريالية الامريكية مجانا ، وبالنفط اما من خلال المشاركة في الاستثمارات النفطية ، او عن طريق ضمان توفير احتياجاته منه .

وبشأن المساعدات الامريكية للكيان الصهيوني ، ينبغي عدم الانجرار وراء تصريحات وزير الخارجية الامريكي الذي يحاول التلميح الى عدم موافقة امريكا على تقديم الدعم ، وانها تدرس الطلب الصهيوني . فكم رددت الدوائر الامبريالية مثل هذه التصريحات التي لا تلبث ان تخفت ، او تحل مكانها المساعدات المالية والدعم الاقتصادي والتضامن الكلي .

من هنا فان اتجاه المحادثات هو في ذات الاتجاه الذي انحرفت نحوه بوصلة محادثات « كامب ديفيد» مهما حاول السادات نفي ذلك ، ومهما غلفت الدعاية الامريكية تراجعاته باغلفة « الجرأة » و « التعقل » . ومهما قيل عن « التنازلات » الصهيونية . فهي في نهاية الامر لا تعني شيئا مقابل ما اعطاه السادات للكيان الصهيوني : « الاعتراف والشرعية » .

الجماهير وقلب الموازين

عامل الاخلال الاستراتيجي في معادلة « السلام » المصري ـ الصهيوني ـ او اية تسوية مع العدو ـ هو الرقم الجماهيري الذي يبدو انه اسقط ، او قلل من شأنه عند حساب معاملات كل رمز في المعادلة . وقد عبرت الجماهير عن نفسها ومواقفها بسرعة وحجم مذهلين لم يتوقعه لا السادات ، ولا بيغن ، ولا حتى الكمبيوتر الامريكي .

لقد كانت مظاهرات الشجب والاستنكار لمعاهدتي كامب ديفيد في فلسطين المحتلة مثلا في رد الفعل السلبي الاولى ، الذي تتابعت بعده ، مقاطعة لقاء ساوندرز وقبله اثرتون ، والاهم من ذلك كله هو تزايد العمليات العسكرية التي اتسم بعضها بالطابع الاستراتيجي .

فخلال الشهرين الماضيين كانت هناك ما يزيد على ٤٥ عملية عسكرية ، امتدت من كريات شمونة في اقصى الشمال من فلسطين الى ياميت في ادنى الجنوب منها . وكان بعضها داخل الاراضي المحتلة في العام ١٩٤٨ .

ان هذه العمليات تكتسب بعدا سياسيا في غاية الاهمية ، ينبع من تكشف الصراع وتمحوره سواء داخل اروقة « بلير هاوس » او في « قمة بغداد » على الارض الفلسطينية ، فالعقبة بين مصر والعدو الصهيوني هو في نهاية المطاف حول رؤية كل منهما للصيغة « الافضل » لانهاء المشكلة الفلسطينية حتى ولو كان ذلك على حساب شعبها وحقوقه .

هذه العمليات هي تعبير ملموس عن العوامل التي من خلالها ستضطر كل اطراف « كامب ديفيد» الى اعادة الحسابات ، وصياغة الخطط لتلافي الخلل الطارىء . وعندها ، ومهما جرى من تعديلات ، ستكون الجماهير ، قادرة على الحركة من اجل قلب المعادلة وتحويلها لصالحها مهما اشتدت هجمة العدو وحلفائه .

وكما في فلسطين المحتلة ، كذلك في الاقطار العربية الاخرى حيث يمكن آن تقود مواقف الصمود والتصدي الحقيقية واقامة الجبهة الشمالية ودعم المقاومة في الداخل والخارج واشراك الجماهير العربية ... الخ ، الى الاسراع في تعديل موازين القوى تمهيدا لقلبها ...